العدد ٤٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥

حَربائيُّونَ في اقتصادياتِنا ومُنفَصِمونَ

د. عليّ مُحمَّد أبو العِزّ

ما نراه بأعيُننا، ونلمَسُه بأيدينا.. ليس هو دائماً الحقيقة؛ فالقمرُ نراه في السماءِ أكبرَ الكواكبِ والأجرامِ مع أنَّه أصغرُها حجْماً، والشمسُ نراها تدورُ كلَّ يومٍ حولَ الأرضِ مع أنَّ العكسَ هو الصحيحُ، والسماءُ نراها فوقَ الأرضِ مع أنّها تُحيطُ بالأرضِ من أقطارها جميعاً، ولا يُوجَدُ (فوق وتحت)، والخِدمةُ والمُساعَدةُ الإنسانية التي تصوَّرناها مشروعَ صداقةٍ، نكتشفُ في نهايةِ المطافِ أنّها كانت مشروعَ سَرقةٍ، والكلامُ المَعسولُ و(الرِّيقُ) الحُلو الذي ظنَّناه مَديحاً وتقديراً لِلذّات؛ تبيَّنَ أنّه جُزءٌ من عمليةٍ تكتيكيةٍ لتخديرِ (المَمدُوحِ) تمهيداً للسَّطوِ عليه، وما تكتُبُ عنه الصُّحُفُ على أنّه (بُطولةٌ) يعلَمُ البطلُ بُطلانَ مَفعولِه، وأنّه في الواقعِ (هزيمةٌ لا عزيمة)... وما أصعبَ الكشفَ عن وجْهِ الحقيقة!

بل إنَّ عُقولَنا وعواطفَنا تهزأُ بنا وتخدعُنا أحياناً! فنعتقدُ أنَّ المجْدَ والارتقاءَ والهِمَّةَ العاليةَ والمصلحةَ العامَّة... هو دافعُنا، بينَما هو الغُرور وتعشُّقُ الذّاتِ وحبُ الظُّهورِ، ونظنُّ أنَّ العدالةَ هي التي تدفعُنا إلى القَسوة، بينما هو الحَسد والحِقد والتشفّي.

تناقضات سُلوكيَّةٌ:

نُطالِبُ بالقانونِ.. ونرفضُ سريانَ أحكامِه على ذَواتِنا وأبناءِ عَشيرتِنا!

ندعو إلى ضبطِ الأعصابِ، وشدِّ حِزامِ الأخلاقِ، وعدمِ الدُّخولِ في ممَرَّ الجهويَّةِ العشائريةِ، والمُقارَعةِ بالتي هي أحسنُ، فإذا ما اقتربَ (المَدُّ) من حِمانا، جزَرناهُ بسدٍّ من حديدٍ، واستأسَدتْ أعصابُنا، وتفلَّتتْ أخلاقُنا.. وانزلقَت إلى الهاويةِ، وما أدراكَ ما هي؟

ندعو إلى إنصافِ المُواطنِ الضعيفِ، وتقديمِ حُلولٍ فاعلةٍ ومَنطقيةٍ لانتشالِه من بحرِ الضرائبِ والأعباءِ المُتلاطِمَةِ، وفي الوقتِ نفسِه تُستقبَلُ القراراتُ الضريبيةُ غيرُ المُسوَّغةِ (التي تشفطُ دخلَه) بالتزميرِ والتطبيلِ، والتصفيقِ والحَفاوةِ البالغةِ؛ باعتبارِها إنجازاً يصبُّ في مَصلحةِ الوطنِ والمُواطنِ، ونتركُ المُواطنَ في دوّامَةِ الصرّاعِ مع تلك القراراتِ التي تُحاول انتزاعَ (مَعاشِه) من بينِ يديه كلُعبَةِ (شدِّ الحبلِ) التي لا يستوي أحدُ طرفيها مع الآخرِ في القوَّةِ وشدَّةِ البأسِ، وهو مَسحولٌ! ومَسحوبٌ! ومَشدودٌ! ومَجذوبٌ! ومَغلوبٌ! ومسلوبٌ!.. لا مَحالةَ.

وإنّ المُتأمِّلَ المُتابعَ للأحوالِ والشؤونِ والمواقفِ الاقتصاديةِ في مُجتمعاتنا يَعرِفُ جيِّداً كمْ يُعاني البعضُ من انفصامٍ خطيرٍ في الشخصيةِ والسلوكِ بين مَدٍّ وجَزْرٍ، من أقصى اليمينِ إلى أقصى اليسارِ، ومُوالٍ ومُناهضٍ، وكلُّ شيءٍ صوابٌ.. وكلُّ شيءٍ خطأٌ ! وكلُّ شيءٍ مُمكِنٌ.. وكلُّ شيءٍ مستحيلٌ ! وأنتَ حُرٌّ.. وليسَ عندكَ ذَرَّةُ حُرِّيَّةٍ في الوقتِ نفسِه! ولا يَعتمدُ الواحدُ من هؤلاءِ؛ بل لا يُحاولُ أنْ يجعلَ لنَفْسِه لوناً وزياً ودَرباً واحداً؛ لأنّه يُخيَّلُ إليه أنّه إنْ فعلَ ذلك؛ سيُصبحُ رصيدُه صَفصفاً، واسمُه نَسياً مَنسيّاً، وبلا وزنٍ ولا قيمةٍ، وسيغطُّ في سُباتِ البَطالةِ، وستمجُّ أجهزةُ الصَّرَّافِ الآليِّ (ATM) بطاقتَه الإلكترونيةَ كُلَّما مَضْمَضَتْها، وستشكو صالةُ جيبِه خلالَ هذا المَوسمِ من شُحِّ الإيراداتِ الزائرةِ المُعارةِ...؛ لذا يختارُ أنْ يكونَ مارقاً هشّاً فاسداً مُبتَزاً ! على أنْ يتزيَّ بثوبِ أبي بَكْرٍ، ويَحملَ درَّةَ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُما.

يَزعمُ قائلاً: إنّه يملكُ مَوقفاً مُعارضاً للسياساتِ الاقتصاديةِ، والخططِ الموضوعةِ لتنفيذِها، ويشجبُ ويُنكرُ–وهو نَكِرَةٌ– ويَحجبُ الثِّقةَ، ويُصدِّعُ رأسَنا بالكمِّ الهائلِ من الانتقاداتِ وسلبياتِ الأداءِ، وبصَوتٍ جهوريٍّ كالرَّعدِ القاصفِ، حتى إذا ما لاحتْ له في الأفقِ (هبْرَةٌ) دَسِمَةٌ، تحوَّلَ الضغطُ المُرتفعُ إلى ضغطٍ مُنخفضٍ، والصوتُ الغليظُ إلى صوتٍ رفيعٍ (خَجولٍ) كصَوتِ الناموسةِ، وتبدَّلَ الموقفُ العِصاميُّ ذو الاتجاهِ الواحدِ إلى (أمٍّ أربعةٍ وأربعينَ) اتِّجاه، ودَبَّ في شريانِ ثوابتِه داءُ الرُّعاشِ، وانقلَبتِ المُعارضةُ إلى مُسايرةٍ، والمُخالفةُ إلى مُوالَفةٍ، وعباراتُ الشجبِ والإنكارِ إلى قصائدِ التأييدِ والإطراءِ ومنحِ الثقةِ...، ولكي يحفظَ ما تبقَّى من ماءِ وجْهِه–إنْ كان فيه ماءٌ– قد يعترضُ على استحياءٍ (وهو يرتجِفُ)، لكنّه على الفورِ – وقبلَ وقوعِ الكارثةِ – يستدركُ على اعتراضِه بتسويغاتٍ واهيةٍ: الدّيونُ مُتراكمةٌ، والمساعَداتُ شحيحةٌ، والإقليمُ مُلتهبٌ، ونقفُ على مُفترقِ طُرقٍ، ووعودُ الدِّعمِ جاري التحميلِ، والدخلُ القوميُّ يتعرَّضُ لمُنخفَضاتٍ جويَّةٍ مُتتاليةٍ، والمَصروفاتُ ضغطُها مرتفعٌ وغيرُ قابلةٍ للتنفيسِ، والعينُ بصيرةٌ واليدُ قصيرةٌ... لكنّها تُصبحُ فجأةً طويلةً وبعشرةِ أصابعَ عند القبضِ والأخذِ، والأكلِ من الولائمِ الزّفرةِ...، وهكذا يلتمسُ الأعذارَ من هُنا وهُناك، ويكرُّ ويفرُّ، ويكسرُ ويجبرُ، ويرفعُ رأسَه قليلاً ثُمَّ يدسُّه في التراب، ويُقْدِمُ ويتراجعُ سَريعاً كمَنْ يقترفُ ذَنْباً، ولا تُعرَفُ له هُويَّةٌ.

و رغمَ ارتفاعِ الأسعارِ، وانكماشِ الرّواتبِ، وتآكُلِ الدخلِ، وانتفاخِ البطالةِ، وكبْتِ الحُرِّيَّاتِ، والضَّربِ على رأسِ الإصلاحِ بمِطرقةِ القاضي، وهَراوةِ السَّجَّانِ، والطَّبطَبةِ على قُرودِ النِّفاقِ الاجتماعيِّ، ومُداعَبةِ المَحسوبيةِ المُتفشيةِ في الوظائفِ القياديةِ، لا يتردَّدُ (الحَرباويُّونَ الإمَّعيونَ المُنفصِمونَ) أنْ يخرجَ الواحدَ منهُم بكلِّ جُرأةٍ وخِفَّةِ دَمٍ، وابتسامةٍ باردةٍ، في خِطابٍ مَهيبٍ ليُمطرنا بكمياتٍ غزيرةٍ من القراراتِ المُسكِّنةِ لآلامِنا: (سيِّداتي سادتي).... لقد سيطَرنا على الأسعارِ الفارَّةِ من وجْهِ العدالةِ، وسلَّطنا العدَساتِ المُكبِّرةَ على الطُّفيلياتِ العالقةِ في الميزانيةِ، وأحضَرنا المُبيداتِ والمُنظِّفاتِ اللازمةِ لجعلِ الوضعِ الماليِّ أكثرَ نَصاعةً وبياضاً، واستأصَلنا سَرطانَ الفقرِ، وأوقفْنا نزيفَ

الرواتب، ولطّفنا الأجواءَ الحارَّةَ الناجمةَ عن ارتفاعِ مؤشِّرِ البطالةِ في مثلِ هذا الوقتِ من السَّنَة، وأنصَفنا الكفاءاتِ التي تورَّمَت أقدامُها وهي واقفةٌ على طابورِ الانتظارِ لتركبَ قطارَ التوظيف، وفتَحنا الأبوابَ المُغلَّقةَ، ونزلْنا أدراجَنا من أبراجِنا لنعيشَ مُشكلةَ الشارعِ، والتَّذمُّرِ من سُوءِ خَدماته، ووضَعنا سمَّاعتَنا (المَعطوبةَ) على قلبِه لنقيسَ عددَ تغيُّظاتِه وزفراتِه،وسرعةَ وتسارعَ شهيقِه وزفيرِه...، وبعد أنْ ينتهي سيادتُه من خِطابه، يطئطئ الميكروفون –المَبلولُ من محلولِ التَّفتفَة– رأسَه إجلالاً وتعظيماً لفَخامةِ الخِطاب، وضَخامَة–الجذّاب– أو الكذّاب، وتنطفئُ الأضواءُ، وتُحجَبُ الرؤيةُ، وتختفي الضَّوضاءُ، وتنقطعُ شبكةُ الاتصالِ، ويُصبحُ (خطيبُ القومِ واللؤم) خارجَ التغطية، لتعودَ (ستّ نفُّوس) إلى ما كانت عليه من الخسَّة، وقلَّةِ المُروءة، وفقدانِ الشهامة، وانعدامِ النَّاموس.

الميزانيةُ والألوانُ (الحربائيةُ) المعكوسةُ:

من السهلِ جداً أنْ تنظُرَ إلى إنسانٍ من الناسِ في عُرضِ الطريق، فتتعرَّفَ من هيئتِه ولباسِه وأدواتِه أنه تاجرٌ، أو وجيهٌ، أو فلاّحٌ، أو طوبرجي، أو ميكانيكيٌّ؛ بل إنَّ عقائدَ الناسِ وأفكارَهم تَظهَرُ من ملابسِهم وأزيائِهم، بينما الشخصيةُ (الحَرباويةُ والانفصاميةُ) فمن الصَّعبِ أو المُستحيلِ الاستدلالُ على شخصيتِه المُضطَربة، ومَشاعرِه السقيمة، وعِلَلِه وعُقَدِه المَرسُومَة على صَفحاتِ قلبِه من ملابسِه وهيئتِه وأدواتِه المُصطنَعة؛ إذ يتلوَّنُ بعِدَّةِ ألوانٍ، ويُبدِّلُ ثوبَه، ويَصرِفُ وجْهَه، ويُغيِّرُ كلامَه، ويُحوِّلُ بَوصَلَتَه بسرعةٍ ضَوئيةٍ خارِقَة، ويُجسِّدُ دورَ البُطولةِ في مَسرحيةِ (الخِداعِ الاقتصاديِّ) باحترافيةٍ (أُوسكاريِّةٍ غربيِّةٍ غريبةٍ)؛ فيتقَمَّصُ شخصيةَ الفارسِ والبائس، وينتحلُ دَورَ البارِّ والضَّار، ويُمثِّلُ الاتِّجاهَينِ المُتزمِّتَ والمُتفلِّتَ، ويُصوِّرُ لك المواقفَ بتقنيةٍ مُلونَّةٍ عاليةِ الجَودَة: فيُخرِجُ الصورةَ باللونِ الأصفرِ الباهتِ ليُفْصِحَ لك عن شُحِّ المَواردِ، وفَقرِ الدَّمِ الذي أصابَ الميزانيةَ، ويُلَوِّنُها باللونِ الأحمرِ للإعلانِ عن حالةِ الطَّوارئ–الطوارق– التي أصابتْ دماغَ الميزانيةِ بنزيفٍ حادٍّ ممّا أدَّى إلى تكبُّدِها خسائرَ من العيارِ الثقيل، ويَستخدِمُ اللونَ الأبيضَ ليُعبِّرَ لك عن حُسنِ النية، وسلامةِ الطَّويَّة في إدارةِ عَجلةِ الميزانية، ويستعملُ اللونَ الرَّماديَّ لإخفاءِ عَورةِ الإخفاقات، وأمّا اللونُ الأزرقُ السَّماويُّ فيُخْرِجُ بطاقتَه في وجْهِ أصحابِ العلاقةِ ككمَّادَةٍ باردةٍ للتخفيفِ من حُمَّى الانفعالات، ويُسجِّلُ على ظهرِ البطاقةِ حفنةً (لا تفكُّ الضِّيقَ) من التَّطمينات والوعودِ البرَّاقة، ورَشَّةٍ (لا تبلُّ الرِّيقَ) من النتائجِ الإيجابيةِ المُتوقَّعة، ويُدثِّرُها باللونِ الأسودِ الوقورِ ليُبرِزَ لكَ جديَّتَه وحديَّتَه وألْمعيَّته في المواقفِ الصَّعبَة، ويُزيِّنُها باللونِ الأخضرِ ليُغازِلَ الجانبَ الاجتماعيَّ للميزانية.

نُبذَةٌ عن بعضِ خَصائصِ الشخصيةِ الحَربائيةِ الانفصامية:

- يَستطيعُ قَبولَ أو تقبيلَ أيِّ شيءٍ ماديٍّ يُمكِنُ أنْ يدخُلَ في جَيبِه أو حسابِه الذي تتوَّهَ في (مُثلَّثه) الإيراداتِ المحليةِ والصعبةِ (الأجنبية)، ويُرفضُ

بإصرارِ تلويثَ يدِه بالفكَّةِ (القِطَعِ الدِّرهمية)، ويتيمَّمُ بصَعيدِها على أنْ تكونَ كاملَةَ الدَّسمِ.

- يَصطادُ فَرائسَه بلسانه بعدَ شَحذِه وبَرمِه، وتحليته بالإكْسِسْوارات الكلامية المُمَغنَطَة بذاتها والمُمَغْنطَة لغَيرِها للوصولِ إلى ملذَّاته، وبعدَ فحصِ مُحرِّكه والتأكُّدِ من قُدرته على إدارةِ عَجلَة اللسانِ بسُرعَةٍ مُذهلَةٍ لالتهامِ خَزنَةِ ضَحيَّته، والعودةِ إلى الموقعِ قبل أنْ يفيقَ من غَفوته المُغناطيسية.
- أبدانٌ (أجسامُ لِئامٍ وطُغامٍ) هائلةٌ ذاتُ هيبةٍ ووَقارٍ، وأزياءٌ أنيقةٌ، وقلوبٌ ضئيلةٌ، وأرواحٌ خاويةٌ، وموازينُ ومكاييلُ مُختلَّةٌ.
- مُنتَجٌ مُتطوِّرٌ، يتلاءمُ معَ الأوضاعِ المتغيِّرَة جميعها، وقد أثبتَ نجاحَه في أسواقِ الفُسَّاقِ ومَن مَرَدَ على النِّفاقِ، ويتمُّ تصويرُه وتصديرُه، ومن ثَمَّ استيلادُه واستيرادُه لإنعاشِ الحركةِ الاقتصادية، وتعديلِ المَيلانِ التجاريِّ الناشئِ عن انحرافِ الفقْرَةِ الوُسطى من العَمودِ الاقتصاديِّ الاصطياديِّ، والأهمُّ أنَّ هذا المُنتَجَ ليس له تاريخُ صلاحيةٍ، ومكتوبٌ عليه تاريخ الإنتاجِ فقطْ.

وختاماً أقولُ واللهُ المُوفِّقُ والمُلْهِمُ:

✳ آفةُ الإصلاحِ الاقتصاديِّ أنْ يكونَ إصلاحاً مَسرحيّاً (كلاميّاً). * آفةُ الإصلاحِ أن نجعلَ منه (بهلواناً) يعملُ للتأثيرِ بالمظاهرِ المُزيَّفة والمَناظرِ الخلَّابة، ولا يعملُ لتشخيصِ الداءِ، ووَصْفِ الدواءِ، والرجاءِ اللهِ الشفاءَ. * آفةُ الإصلاحِ أنْ ننظُرَ إلى الحَرباويِّ المُنفَصِمِ- أخلاقيّاً واقتصاديّاً- وهو يَسبَحُ في بحرٍ لُجِّيٍّ من الأكاذيبِ المُلفَّقَةِ والمواقفِ المُتضاربةِ والشراذمِ المُضاربةِ، ولا يَعنينا منه إلاّ الإعجابُ ببَراعتِه في السِّباحةِ، ودُبلوماسيته في السياحةِ وسيطرته على إعلامِ الساحةِ.

✳ لا يُمكنُ أنْ نذوقَ طعمَ الإصلاحِ ما دامتِ الرُّوحُ الاقتصاديةُ مُنفَصِمَةً وهائمةً في أجواءَ توحُّديةٍ مُكْفَهِرَّةٍ تصرعُ جسمَ أيِّ ميزانيةٍ تتلبَّسُ بها، وتجعلُها تتخبَّطُ في مهاوي الإعسارِ، وتتردّى في ظُلماتِ الإفلاسِ.

✳ إنّ إدراكَ الخَللِ، وضبطَ الأيدي العابثةِ بالمُقدَّراتِ والثرواتِ، وإيقافَ الدحرَجةِ الاقتصاديةِ إلى قاعِ القرارِ، وتحريكَ الجُمودِ بملعَقةِ الجديدِ والتجديدِ، وغَرفَ الماءِ بمغرَفةِ التغيير والتغيير.. جدٌّ لا هَزْلَ فيه، والعَينُ المَطموسةُ لا تصلُحُ للنظرِ إلى الماءِ المُعكَّرِ ولا إلى الماءِ العَذبِ الزُّلالِ الذي يقطرُ صفاءً ونقاءً.

✳ في الحساباتِ الدُّنيويةِ قد تشذُّ الأرقامُ، وتغيبُ الإفصاحاتُ،وتُوهِمُ العباراتُ؛ أمّا في الحسابِ الإلهيِّ المُسجَّلِ والمَرقومِ.. لا تَضيعُ نُقطةٌ من رقْمٍ مُحيتْ، ولا كلمةٌ من سَطرٍ مُسحَتْ، ولا يَغيبُ حرفٌ، ولا يُصرَفُ صَرْفٌ، ولا يذهبُ هَدرٌ بغيرِ حقٍّ،قال جل جلاله:{ولا يَعزُبُ عن ربِّكَ من مِّثقالِ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ}، وقالَ اللهُ تعالى: فمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

(قُلْ هذه سبيلي أدعُوا إلى اللهِ على بَصيرةٍ)

والحَمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.